نجد

منذ القرن العـ

حتى ظهور الشـ

في عدد سابق من هذه المجلة (★) تكلمنا باختصار عن علاقة نجد بالقوى المحيطة بها شرقا وغربا · وأشرنا الى أنه كان هناك نوع من النفوذ السياسي لتلك القوى داخل نجد ، ولكنه نفوذ لم يبلغ من القوة درجة تخوله الهيمنة على سير الحوادث في هذه المنطقة · فقد فشل نفوذ أشراف مكة في بعض جهاتها الاخرى في خلق جو سياسي مستقر · وظلت الحروب مستمرة بين البلدين النجدية كما بقي الصراع محتدما بين قبائل نجد المختلفة ·

وبهذه الحلقة نبدأ الكلام عن الأوضاع الداخلية في نجد مستهلين ذلك بالحديث عن أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية ·

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية :

كانت منطقة نجد في تلك الفترة من أقل مناطق جزيرة العرب تأثرا من حيث اختلاط العناصر غير العربية بالسكان العرب المحليين وذلك لأنها بعيدة عن مواطن الامتزاج السكاني المتمثلة عادة بالمناطق الساحلية والأماكن المقدسة · وعلى هذا الأساس فان الغالبية العظمى من أهلها ينتمون الى قبائل عربية معروفة النسب ·

(★) العدد الاول ، السنة الثانية ·

للدكتور : عبدالله الصالح العثيمين

اشر الهجرى
يخ محمد بن عبد الوهاب

ورغم أن تلك القبائل مستقل بعضها عن بعض من حيث التسمية مما يوحي بوحدة القبلية وتميزها وانفرادها عن غيرها ـ وهذا هو الغالب في التركيب القبلي ـ الا انه يحدث احيانا أن عناصر أو أفرادا من قبيلة معينة ينضمون الى قبيلة أخرى لسبب من الأسباب كاختلافهم مع أكثرية قبيلتهم ومن ثم اضطرارهم الى الالتحاق بقبيلة قوية ينعمون بحمايتها من ناحية ويحصلون على نصيب من الغنائم التي يحرزها عادة الاقوياء من ناحية أخرى . وكانت القبائل القوية ترحب بالمنضمين اليها شهامة ورغبة في ازدياد قوتها . ويأخذ المنضمون اسم القبيلة التي انضموا اليها ويعتبرون قسما منها على العموم . ويجري ذلك الالتحاق عادة في مرحلة ما قبل الاستقرار .

وكانت هناك فئات أخرى في المجتمع النجدي ، بعضها قد تعود الى أصول عربية ضاعت أو سلبت منها لأسباب مختلفة ، وبعضها تنتمي الى أصول غير عربية. ومن هذه الفئة الاخيرة عناصر أتت الى نجد عن بطرق متعددة : من بينها الرق أو الفرار اليها امعانا في البعد عن ظروف قاهرة كانت تعيشها خارجها ، ومن بينها القدوم الى الجزيرة العربية لتأدية الحج . ولا شك أن الغالبية الكبيرة من هذه الفئة الاخيرة كانت تستقر عادة في مدن الحجاز الكبرى حتى باتت تشكل قطاعا كبيرا من سكانها ، لكن فريقا قليلا منها قد اتخذ من بعض البلدان النجدية مستقرا له وموطنا . وغالبا ما اشتغل أفارده بالتجارة أو الحرف المختلفة .

وكانت نظرة النجديين الاجتماعية نظرة قبلية · ومن هنا فان ثبوت الانتماء العربي الاصيل كان من الامور المهمة لتحديد مكانة الفرد أو الأسرة في المجتمع · وقد كانت هذه النظرة موجودة لدى البدو والحضر على حد سواء · وتجلت أكثر ما تجلت في قضية الزواج وفي مزاولة بعض الأعمال أو الحرف · حيث لا يتزوج المنتمي الى أصل عربي من فئة غير منتمية اليه ، وحيث لا يزاول مهنة كالحدادة ونحوها ·

أما من حيث طريقة المعيشة فان المجتمع النجدي كان آنذاك منقسما الى قسمين : حضر وبدو · غير أنه كانت توجد مرحلة انتقالية معينة يمر بها بعض السكان يصعب الحاق مجتازيها بأي من القسمين السابقين ، ذلك أن هؤلاء لم يقطعوا الصلة بحياتهم البدوية التي كانوا بصدد تركها ، ولم يألفوا الحياة الحضرية التي كانوا في سبيل الانتقال اليها ·

والدوافع الى ترك حياة الرعي والتنقل واستبدالها بحياة الاستقرار كانت متعددة · ومن بينها ما يعود الى عوامل مناخية · فقد ترغم أيام القحط الشديد البدو على الالتجاء الى البلدان ابقاء لحياتهم · وأكثر هؤلاء اللاجئين في الايام الحرجة كانوا بدون شك يغادرون هذه البلدان بمجرد تحسن الوضع بنزول المطر ونبات الكلأ · ولكن منهم من كان يستمرىء حياة الاستقرار فيبقى مستقرا · وقد يكون للاحتكاك التجاري أثر في قضية الاستيطان أيضا ·

وكما هو متوقع جاء استقرار النجديين حول الأمكنة التي تتوافر فيها مصادر المياه اللازمة لقيام الزراعة أهم مقومات حياة الحضر الاقتصادية آنذاك مثل جوانب الاودية المشهورة والواحات المختلفة · وقد يكون الموقع الجغرافي ، مثل كون المكان واقعا على طريق تجارية ، من الامور المهمة في اختيار موطن الاستقرار ولكن صلاحيته للزراعة كانت في الغالب فوق كل اعتبار ·

والملاحظ أن البلدان النجدية اختلفت في طريقة تطورها واتساعها ، فبعضها كان قرية واحدة أخذت تنمو شيئا فشيئا حتى أصبحت بلدة كبيرة · وهذا هو الغالب بالنسبة لكثير من بلدان نجد · وبعضها تكون من مجموعة أماكن سكنية أو قرى صغيرة متجاورة أخذت تنمو وتتسع حتى اتصل بعضها ببعض وأصبحت في نهاية الامر مدينة واحدة ·

أما تكون القرية ذاتها فانه اختلف ايضا من قرية الى أخرى · فأحيانا تكونت القرية عن طريق أحد السكان الحضر ـ أو مجموعة منهم ـ بشرءا الارض من مالكها كما حدث بالنسبة للعيينة(١) ، أو باعطاء المالك الارض له كما هي الحال بالنسبة للمجمعة والدرعية (٢) ، أو بأخذها من صاحبها بالقوة كما كان من أمر البير (٣) ، ثم الشروع بزراعة تلك الارض والاستقرار فيها · وأحيانا تترك جماعة مستقرة مكانها لسبب من الأسباب ثم تنزل على أطلال قرية خربة فتبعثها من جديد وتستوطنها كما حدث بالنسبة لكل من بلدتي التويم وحرمة اللتين كانتا لبني عائذ فتركوهما فبعثهما آل وائل الذين كانوا قد اضطروا الى النزوح من أشيقر (٤) · وقد يحدث انشاء القرية عن طريق استيطان أسرة أو فخذ من قبيلة حول مورد ماء ، ثم البدء بالزراعة حوله وبناء البيوت · ولكن المتتبع لما ذكرته المصادر المتوفرة لدينا عن نشأة كثير من بلدان نجد حول تلك الفترة المذكورة في البحث يرى أنها أنشئت بواسطة الحضر من السكان ·

وفي خلال المرحلة الانتقالية من البداوة الى التحضر كان المنتلقون يعيشون ـ كما أشرنا ـ حياة لا هي بدوية صرفة ولا هي حضرية بحتة · كان جزء من وقتهم مخصصا للرعي وآخر للزراعة · وخلال هذه المرحلة كانت أهمية الحمى ـ المرعى أو المغلى ـ كبيرة جدا لاعتماد السكان على الرعي جزئيا ·

والواقع أن أهمية الحمى ظلت ملاحظة من قبل السكان حتى بعد هذه المرحلة، يوضح ذلك ـ مثلا ـ موقف أهل جرمة حين طلبوا من عبدالله الشمري أن ينزل في أعلى الوادي لئلا يحول بينهم وبين المرعى (٥) ·

وحين تكون البلدة مسكونة من قبل أناس لا ينتمون الى عشيرة واحدة فان المشاكل كانت تقوم أحيانا بينهم اما لسبب اقتصادي كالنزاع حول استعمال المياه ، واما لسبب سياسي كخوف أحد الفريقين من سيطرة الفريق الآخر · وفي بعض الاحيان يحاول السكان حل تلك المشاكل خاصة ما تعلق منها بالناحية الاقتصادية بطرق سلمية · ولكن محاولاتهم قد تنجح لمدة معينة ثم تتعثر وتفشل لاندماج الجانب السياسي فيها · وهذا ما حدث بالنسبة لأهالي أشيقر فقد كان يسكنها كل من آل وهبة وآل وائل ، واتفقا على أن يستغل أحدهما الماء لمدة يوم يذهب أثناءه الفريق الآخر بحيواناته الى المرعى · وفي اليوم التالي يتبالى الرفيقان الموقف · لكن هذه الطريقة السلمية لم تستمر ، فقد خاف آل وهبة من رجحان كفة آل وائل بازدياد وفود أقاربهم اليهم ، وقرروا التخلص منهم ، فأخرجوا عائلات آل وائل من البلدة

حينما كان رجالهم في المرعى ولم يسمحوا لهم بالدخول اليها الا لأخذ ما أمكنهم حمله من ممتلكاتهم (٦) ·

وقبل الاستمرار في الحديث عن بعض المقومات الاجتماعية والنواحي الاقتصادية لدى الحضر والبدو في نجد على انفراد وعلاقة كل منهما بالآخر اقتصاديا ، تجدر الاشارة الى نظرة البدوي الى الحضري من الناحية الاجتماعية · كان البدوي فخورا بنفسه ، فخورا بصحرائه التي يرى فيها المكان المناسب للحفاظ على شخصيته وتقاليده ، وفي رأيه أن صفات البطولة محصورة في أبناء الصحراء الذين يتنقلون فيها من مكان الى آخر بحرية كبيرة · وأن المستقر يفقد الكثير من تلك الصفات العالية · وبطبيعة الحال لم يكن ينظر الى الحضري في نجد نظرة احتقار مبعثها أنه أنقى منه أصلا ، فهو يعرف مثل غيره أن أكثر الحضر من أصول عربية وأنهم أبناء عمومته ولكنه كان يرى أن عوامل التحدي العظيمة للصحراء تتضاءل لدى الفرد بمجرد استقراره وكونه أصبح محميا بأسوار · فالحضري وان ظهر بمظهر الفارس الشجاع فان مخبره ليس مساويا للبدوي · يدل على ذلك قول الشاعر العنقري الذي زهدت به احدى البدويات لأنه حضري :

وراك تزهد يا ريش العين فينا
وتقول خيال القرى زين تصفيح (٧)

وكان رد الفعل الحضري لهذه النظرة الاجتماعية البدوية مختلفا · فبعض الحضر أوضح أن تلك الصفات البطولية متوافرة عند المستقرين والرحل دون تمييز، وبعضهم زعم أن البدوي متغطرس لا بد من معاملته بقسوة وعنف حتى يسير سيرة سيرة حسنة · مثل الفريق الاول الشاعر المشار اليه قبل قليل حين قال :

ترى الظفر ما هوب للظاعنينا
جسم وهو بين الوجيه المفاليح

البدو واللي بالقرى نازلينا
كل عطاه الله من هبة الريح (٨)

ومثل الفريق الثاني حميدان الشويعر بقوله :

البدوي ان عطيته تسلط عليك
قال ذا خايف مير بالك عطاه

ان ولى ظالم مفسد بالكمام
وان ظلم زان طبعه وساق الزكاه (٩)

وكانت الزراعة أهم مقومات الحياة الاقتصادية لدى حاضرة نجد ٠ وكانوا يحبونها ويولونها عناية كبيرة ٠ وكان يزاولها العرب الأصلاء وغيرهم ويعتمدون عليها مهما اختلفت مكانتهم الاجتماعية واتجاهاتهم الفكرية ٠ فأغلب القادة الذين نشأت بعض البلدان النجدية على أيديهم - كما مر بنا - اهتموا بالزراعة واحتضنوها ، وبعض علماء تلك الفترة وقفوا منها نفس الموقف الذي وقفه أولئك القادة ٠ وأقرب مثال على ذلك أن الفقيه المؤرخ أحمد المنقور كان يتعيش من الزراعة (١٠) ٠

وبطبيعة الحال لم يكن جميع مالكي الارض يقومون بزراعتها دائما كان الوضع الاقتصادي هو المهيمن على الموقف ، فأحيانا يقوم المالك بالزراعة وأحيانا يستأجر من يقوم عنه بها ، واذا كان غنيا بدرجة تخوله شراء عبيد فان هؤلاء يساهمون في زراعة أرضه ٠ وأحيانا أخرى يؤجر المالك أرضه الى شخص آخر ليقوم بزراعتها (١١) ، أو يتفق معه على رعاية وتنمية مزرعته بقسم معين من ثمرتها ٠

وكانت نجد تنتج أنواعا مختلفة من المحصولات الزراعية والخضروات والفواكه ، لكن النخيل كانت - فيما يبدو - أهم تلك الانواع لدى السكان ، كما كانت أحب الاشجار الى نفوسهم لما تعود به عليهم من فوائد متعددة ٠ فبالاضافة الى ثمارها المهمة في التغذية كان كل جزء منها يستخدم في غرض من أغراض حياتهم اليومية آنذاك ٠ وليس غريبا متى ما أدركت قيمتها الاقتصادية الكبيرة ان يتغنى بها شاعر مثل حميدان الشويعر بقوله :

ترى الخير في راسيات الجذوع
الى دلجن السنين الحطايم
توفر حلالك وتفرح عيالك
ويكثر نوالك بيوم الصرايم

وأن يحث على الدفاع عنها بقوله :

احربوا واضربوا دون حدب الجرير
واذكروا قول حاتم ولاش سواه (١٢)

موتكمْ بالبواتر لكم كبر كار
وموتكم بالتوجع عليكم زراه

وكانت تجابه المزارعين النجديين مشكلات متعددة ، ولكنها تختلف من مكان الى اخر ، فمشكلات سكان الخرج والأفلاج ـ مثلا ـ كانت أقل من مشكلات غيرهم من سكان بعض المناطق النجدية لسهولة الري فيهما من ناحية ووفرة المياه من ناحية ثانية . وكان على أناس غيرهم من المزارعين في نجد أن يواجهوا مشكلات اضافية اخرى مثل استخراج الماء من الآبار وهو أمر يتطلب حيوانات تقوم به ويدا عاملة تلاحظ تلك الحيوانات ، ومثل حدوث جفاف مياه الآبار أحيانا لعدم سقوط المطر ، كما وقع لأهل سدير واضطر بعضهم الى الرحيل عن مواطنهم سنة ١٩٢٦ هـ (١٣) .

وهناك مشكلات أخرى كان المزارعون النجديون عموما يقاسونها أحيانا فتحدث أضرارا بالغة بمزروعاتهم ومحاصيلهم وتنهك حالتهم الاقتصادية ، مثل البرد الشديد والامطار الغزيرة المصحوبة أحيانا بالعواصف أو البرد ، ومثل الجراد وتخريب المحصولات أو نهبها من قبل الاعداء ، ففي سنة ١١٢٢ هـ ـ مثلا ـ خرب البرد مزارع ملهم وقضى الدبا ـ صغار الجراد ـ على محصولات بعض جهات البلاد ، وأهلك البرد ما كان في سنبلة من الزرع (١٤) . وفي سنة ١٠٩٨ هـ أسقطت الريح الف نخلة من القارة والروضة (١٥) . وفي سنة ١١٠٠ هـ قطعت عنزة نخيل عشيرة (١٦) . كما نهب الاعداء ذرة أهل أشيقر سنة ١١٣٩ هـ (١٧) .

وفي منطقة جغرافية وفترة زمنية كالمنطقة والفترة اللتين نتحدث عنهما كانت هناك أهمية اقتصادية لأنواع من الحيوانات ، فقد كانت الابل مهمة بالنسبة للسكان المستقرين . كان المزارعون يستخدمونها أحيانا لاستخراج الماء من الآبار ، وكانت تعمل من جلودها المدبوغة غروب لاخراج ذلك الماء . وبجانب استخدامها في مجال الزراعة فانها كانت تخدم التاجر والمسافر والمحارب . وكان لحمها من أهم مصادر اللحوم لتغذية السكان . وكانت البقر ذات فائدة جيدة سواء في المجال الزراعي أو في امداد الاهالي باللبن واللحوم . كما كانت الأغنام تقتنى من قبل الحضر للانتفاع بألبانها ولحومها .

أما الخيل فلم تكن كثيرة عند الحضر مثل كثرتها عند البدو لاختلاف الحياة الاجتماعية لدى الطرفين ، فقد كانت الغزوات بين الفريق الاول أقل منها بين

الفريق الثاني • وفي الغزوات تظهر اهمية الخيل الخاصة • وأما الحمير فكانت تخدم أغراضا معينة مثل استخدامها في مجال الزراعة واحضار المنتجات الزراعية وغيرها الى الاسواق ، والانتقال عليها من مكان الى اخر •

ذلك باختصار ما كان من أمر الزراعة أهم مقومات الحياة الاقتصادية لدى حاضرة نجد آنذاك وما يتعلق بها • أما الجانب الحيوي الآخر من جوانب تلك الحياة لديهم فقد كان التجارة • وبامكان المرء أن يلاحظ وجود ثلاثة أنواع من التجارة آنذاك يمكن أن تطلق عليها التسميات الآتية : تجارة محلية وتجارة اقليمية وتجارة خارجية • أما الاولى فقد تجلت في ذلك التعامل التجاري بين السكان الحضر أنفسهم في كل بلدة على انفراد • وكانت المنتجات الزراعية أو المصنوعات المحلية تباع أحيانا بطريقة مباشرة الى المستهلك • وأحيانا تباع اليه بواسطة طرف آخر يأخذ نصيبه من الكسب من أحد الفريقين • كما كان أحيانا يشتري السلعة من المزارع أو الصانع أو يستوردها من خارج البلدة ثم يبيعها الى المستهلك • أما التجارة الاقليمية فهي تلك التي كانت قائمة بين بلدتين نجديتين أو بين حاضرة نجد من جهة وباديتها من جهة ثانية • ومن المعروف أن بعض البلدان أكثر انتاجا من البعض الآخر فكان الفائض عند بعض يصدر الى البعض الآخر المحتاج • ومن المعروف أيضا أن كلا من الطرفين الحضر والبدو محتاج للآخر ، فالبدوي يأتي الى البلدان ليشتري متطلباته من تمر وحبوب وملح وملابس وأوان وأسلحة وليبيع ما يزيد عن حاجته من ابل وأغنام ودهن وجلود وأصواف • وفي أحيان قليلة كان بعض التجار من الحضر يذهبون الى أماكن تواجد البدو ليشتروا مايجدونه مناسبا لهم ويبيعوا ما قد يكون معهم مما يحتاج اليه أولئك البدو •

وكانت أسعار الأطعمة بصفة خاصة تتغير كثيرا من وقت الى آخر حسب جودة المحاصيل ووفرتها ، وطبقا لسنة القحط وسنة الربيع ، أو تمشيا مع قانون العرض والطلب ، فمثلا بيع صاع القمح سنة ١٠٩٦ هـ بثلاث محمديات ، بينما بيعت خمسة أصواع منه بعد ذلك بثلاث سنين بمحمدية واحدة (١٨) • وفي سنة ١١٢٥ هـ بيعت مائة وزنة من التمر في بداية الامر بأحمر ، ولكن حينما قدمت الى السوق جماعات من قبيلة عنزة لتشتري حاجتها من ذلك المحصول قفز سعره فجاة الى الضعف (١٩) •

والى جانب البيع الحاضر المعتاد كانت هناك أساليب أخرى · منها أن يدفع شخص الى آخر مبلغا من المال على أن يدفع اليه مقابل ذلك مقدارا معينا من التمر أو البر أو نحوهما وقت جني الثمار (٢٠) ·

ومن أشهر العملات التي كان يستعملها النجديون آنذاك الاحمر والمحمدية (٢١) والى جانب هاتين العملتين كانت هناك عملات أقل شهرة مثل المشخص والمطبق والحرف والجديدة (٢٢) ·

أما التجارة الخارجية فهي تلك التي كانت قائمة بين سكان نجد كمنطقة وبين سكان الاقطار الاخرى · والواقع أن نجدا لم تكن تنتج كل ما يحتاج اليه سكانها · ولذا كان لا بد من استيراد ما كان غير متوفر فيها أو ما كان غير كاف مثل بعض الأطعمة والملابس والسلاح · لكنها من ناحية أخرى كانت غنية ببعض المنتوجات الحيوانية مثل الابل والخيل · ومن هنا انطلق التجار النجديون من بلادهم الى البلدان الاخرى بائعين ومشترين ·

لقد بلغت درجة غنى منطقة نجد بالابل حدا جعلها تسمى « أم البل » · وطبقا لما ذكره بعض الرحالة الغربيين الذين كتبوا حول هذاالموضوع بعد هذه الفترة بقليل كان الرجل من قبيلة عنزة الذي يملك أقل من عشر نوق يعتبر فقيرا · وكان معدل ثروة الأسرة من قبيلة قحطان حوالي ستين بعيرا (٢٣) ·

وسواء كان التقدير السابق صحيحا أو مبالغا فيه الى حد ما فانه ما من شك أن نجدا كانت غنية بالابل بمقدار يزيد كثيرا عن حاجتها آنذاك · وهذا أمر استمر الى عهد قريب ·

وكانت الخيل النجدية تصدر الى مناطق مختلفة من بينها البصرة وفي وقت لاحق كانت تؤخذ من هناك الى الهند (٢٤) ·

ورغم أن التجار النجديين ذهبوا الى مختلف الاقطار القريبة منهم الا أن علاقاتهم التجارية مع الجهات الشرقية والشمالية الشرقية من جزيرة العرب كانت فيما يبدو أعمق من غيرها · وكانوا يستوردون من المنطقة الشرقية أو عن طريق موانئها بعضا مما يحتاجون اليه (٢٥) · وكانت العباءات الشرقية تفوق غيرها تقديرا لدى أهل نجد (٢٦) ·

وكثيرا ما ذهب الى الجهات السابقة مع التجار أناس يبحثون عن العمل سواء في المجال الزراعي أو البحري أو غيرهما · وقد استقر بعض أولئك المذكورين في تلك الجهات ، ووصل استقرارهم الى بغداد حتى أصبحوا فيها قوة يستعين بها بعض باشوات الأتراك في صراعهم حول السلطة في تلك المدينة (٢٧) ·

وعلى أية حال فان القوافل التجارية بين نجد وغيرها من الاقطار كانت تتعرض أحيانا للخطر نتيجة لهجمات رجال القبائل عليها ، وذلك لانعدام السلطة السياسية القوية القادرة على حفظ الأمن في المنطقة · صحيح أن القوافل كانت تأخذ معها رفيقا من كل قبيلة يتوقع المرور في منطقتها وبذلك تسلم من مهاجمتها ، ولكن القوافل أحيانا تصادف بفريق من قبيلة ليس معها من ينتمي اليها فتصبح عرضة لنهبها خاصة وأن رجال القبائل رحل · بل ان الحضر أنفسهم قد يهاجمون القوافل التجارية اذا كان بينهم وبين أصحابها عداء كما عمل أهل البير حين أخذوا قافلة تحمل الألبسة لأهل العيينة سنة ١٠٧٢ هـ · (٢٨) ·

وفي مجال الكلام عن الناحية الاقتصادية في نجد تجدر الاشارة الى الحج وفائدته لأهل هذه المنطقة · فبالرغم من أن الأثر الكبير للحج من الناحية الاقتصادية كان في الحجاز ، وخاصة مدنها الكبرى ، فان نجدا لم تكن بمعزل عن التأثر به من هذه الناحية · فبعض البلدان كانت واقعة في طرق الحج المتجهة من شرق وشمال شرق الجزيرة العربية وما وراءهما الى الحجاز · وكثيرا ما توقفت قوافل الحجاج في هذه البلدان لشراء ما تحتاج اليه من أطعمة غيرها أو استبدال بعير أجهده السير بآخر · وقد يبيع رجال تلك القوافل شيئا مما معهم الى السكان المحليين (٢٩) ·

والمصادر المتوفرة لدينا عن هذه الفترة لا تعطينا معلومات كافية لتكوين رأي مرجح حول نسبة من يعملون في الحقل الزراعي من حاضرة نجد الى من يمارسون الاعمال التجارية ، ولكنه من المؤكد أن سكان بعض المناطق كانوا اكثر نشاطا من سكان المناطق الاخرى في ميدان التجارة ، خاصة التجارة الخارجية · والمصادر المشار اليها لا تمدنا أيضا بمعلومات كافية عن مستوى المعيشة ، ولكن المرجح أن ذلك المستوى كان منخفضا على العموم نظرا لعدم الاستقرار المطلوب لكل رخاء اقتصادي من ناحية ولظروف المنطقة الطبيعية أحيانا من ناحية ثانية · وهذا سبب من أسباب النزوح المؤقت أو الدائم لبعض الافراد أو الجماعات من نجد ·

أما نسبة الأغنياء في المجتمع فتبدو قليلة · وكانت مظاهر الغنى متعددة ، من بينها امتلاك الرقيق واقتناء الخيل · وارتباط الحضري بالارض غير ولاء المنتمي الى أصل عربي من القبلية الى الأسرية لأن ظروف حياته الاجتماعية والاقتصادية تغيرت · ومع هذا فان الاصالة النسبية ظلت من الأمور المعتبرة في تقدير المكانة الاجتماعية للفرد · والى جانبها كانت هناك عوامل أخرى كالوضع الاقتصادي والزعامة السياسية أو الدينية · والواقع أنه قد يرد في كلام بعض شعراء هذه الفترة ما يوحي بقوة العامل الاقتصادي عند النظرة الاجتماعية · فحميدان الشويعر يقول :

الاموال ترفع من ذرارية خانسه
والقل يهفي ما رفع من مغارسه

الا يا ولدي صفر الدنانير عندنا
ترفع رجال بالموازين باخسه

وكم ترفع الاموال من فرخ باشق
تعلى على حر بكفيه فارسه (٣٠)

ومع التسليم بوزن المال فان هذا القول لا يجب أن يؤخذ بحرفيته الى آخر مدى في مدلوله · فحميدان نفسه وضع صفات معينة أخرى ترفع مكانة الفرد في مجتمعه حين قال :

أربع يرفعن الفتى بالعيون
الظفر والكرم والوفا والصلاح (٣١)

وواضح أن هذه النظرة الاخيرة مزيج من مثل عربية وقيم اسلامية ، أو بتعبير آخر هي النظرة العربية الاسلامية ·

وكان من سجايا المجتمع النجدي النبيلة آنذاك حب الخير المتمثل في التعاطف مع الفقراء حيث كان البعض يعين أو يوقف طعاما يفطر به الصائمون في المساجد خلال شهر رمضان المبارك (٣٢) ·

وكان من نتائج الاتصال الذي كان يتم بين النجديين وسكان الاقطار الاخرى، سواء في الميدان التجاري أو غيره ، دخول بعض الامور الى المجتمع النجدي · من ذلك ــ مثلا ــ القهوة · وقد أورد المنقور آراء الفقهاء حولها (٣٣) · ويبدو أن

المجتمع لم يكن متقبلا لها كل التقبل · فقد جمعها حميدان في معرض سخريته من ابنه حين قال :

اليمنى فيها الفنجال
واليسرى فيها البربورة (٣٤)

والنارجيلة والغلايين كانتا سبة في نظر هذا الشاعر ـ وهما مما دخل الى هذا المجتمع نتيجة الاتصال المشار اليه :

يا عيال الندم يا رضاع الخدم
يا غذايا الغلاوين والبربرة (٣٥)

وكانت المرأة النجدية تقف جنبا الى جنب مع الرجل في محاولة التغلب على مشاكل الحياة · كانت تقوم بأعباء المنزل ورعاية الاطفال ، وتساعد في الزراعة وتخرج احيانا لجمع الأعشاب أو الحطب · وقد أشارت المصادر الى بروز بعضهن في المجالات الاجتماعية الهامة (٣٦) · ولكن الدور القيادي كان للرجل بطبيعة الحال · وكان الزواج المبكر من الامور الشائعة في المجتمع خاصة بين أفراد الأسر الغنية (٣٧)

وحينما نحاول التعرف على أسلوب حياة بادية نجد في تلك الفترة من خلال ما هو متوفر لدينا من معلومات نجد ان ذلك الاسلوب لم يكن مختلفا عما كان عليه أسلوب آبائهم وأجدادهم عبر العصور التاريخية المختلفة · وقد فرضت عليهم الظروف المحيطة بهم استمرار ذلك الاسلوب وبقاءه · ظلت الصحراء بمراعيها والخيمة والابل أهم مقومات حياتهم · كان البدوي يرى في الصحراء المكان المناسب لحياته ، كما كان يرى فيها ضمانا للحفاظ على شخصيته وتقاليده ـ كما أشرنا من قبل ـ · وبالاضافة الى كونها مجالا فسيحا لتحركه فانها كانت منطقة دفاعه ضد أي عدو من خارجها · وكانت الخيمة المأوى المناسب لمن حياته غير مستقرة وظروف معيشته تحتم عليه الانتقال من مكان الى آخر جريا وراء المراعي الحسنة ، ابقاء لحيواناته وتنمية لها · وبالتالي ابقاء لحياته الاتصادية ذاتها ·

وبطبيعة الحال كان المطر أهم شيء يؤثر في حياة البدوي تأثيرا مباشرا · واذا كان مهما في حياة الحضري فانه كان مهما جدا بالنسبة لرج البادية ، فهو مصدر سعادته وغناه ، كما أن القحط عدوه اللدود الذي يضطره الى الالتجاء الى المدن والقرى ضمانا لحياته المهددة بالخطر · والواقع أن عدم نزول الامطار لم يكن شيئا

غير مالوف في هذه المنطقة · وكثيرا ما سبب انقطاعه الكثير من المشاكل للبادية خاصة سواء تلك المشاكل الاقتصادية كتلف الحيوانات أو ضعفها أو المشاكل المتمثلة في الحروب · وذلك أن القبائل التي لم تحظ(بالامطار في أماكن نفوذها ستحاول حتما دخول المناطق التي نزل عليها المطر وان كانت تابعة لقبائل أخرى · وأحيانا تسمح هذه الاخيرة لها بالدخول الى مناطقها تبرعا أو مقابل شيء معلوم ، ولكنها أحيانا أخرى لا تسمح لها بذلك فتقوم بينهما حروب ·

وأما الابل فكانت أهم مقومات حياة البدوي الاقتصادية وأهم حيوان بالنسبة اليه ، فهي مصدر من مصادر اللبن واللحوم لديه وهي وسيلة مواصلاته · وهي فوق هذا وذاك معيار لكثير من أمور حياته الاجتماعية · فالديات والمهور ـ مثلا ـ كانتا من الأشياء التي تقدر بأعداد معينة من الابل · وكانت مكانتها لدى رجل الصحراء تفوق مكانة النخلة عند أبناء المدن والقرى · فلا عجب اذا أن يذكرها جنبا الى جنب مع محبوبته في الدفاع عنها والاستماتة من أجلها :

نطعن لعين اللي تهل دموعها
تبكي وفي تالي البكا نخاوي
تقول يا لظفران من عاداتكم
هوشوا عسى يبقى لكم شلاوى
ونطعن لعين اللي تزج حنينها
عفرا تبي صيفية المطاوي (٣٨)

وقد سبقت الاشارة الى وفرة الابل في نجد بدرجة تزيد عن حاجتها ·

وكانت الخيل أيضا كثيرة لدى رجا لالقبائل النجدية بحيث كانوا يستغنون عن بعضها فيبيعونه ويصدر أحيانا الى الاقطار الاخرى كما ذكرنا · وكانت منفعة الخيل للبدوي كبيرة خاصة وأن حياته كانت مملوءة بمفاجآت الغزو دفاعا وهجوما مما يتطلب هذه الحيوانات السريعة · وبالاضافة الى منفعتها فانها كانت من الاشياء التي يعتز باقتنائها ويفخر في المجال الاجتماعي ·

وكانت الأغنام أيضا مهمة من الناحية الاقتصادية للقبائل الرحل · ومن منتجاتها كثيرا ما اشتروا حاجاتهم الضرورية الاخرى كالأطعمة والملابس والاسلحة، اضافة الى عمل بيوتهم من أصوافها وامدادها لهم باللبن واللحوم ·

وغني عن البيان أن حياة البدو الاقتصادية تقوم على الرعي ، ولكن هناك مصادر أخرى ، من أهمها الغزو وهو سلاح ذو حدين فالغني اليوم بسببه قد يصبح فقيرا غدا بسببه أيضا · ومن تلك المصادر ما كانت تأخذه بعض القبائل من اتاوات على بعض السكان الحضر ·

ولقد سبقت الاشارة الى استفادة حاضرة نجد من مرور القوافل المتجهة الى الحجاز في منطقتهم · والواقع أن استفادة البدو في هذه المنطقة كانت أكبر من استفادة الحضر · ذلك أن الحجاج كانوا يستأجرون أحيانا ابلا من البدو لنقلهم ، وكانوا يعطون رؤساء القبائل هدايا اتقاء لخطر هجومهم عليهم ، كما كانوا يدفعون اتاوات معينة احيانا مقابل مرورهم بمنطق نفوذهم · وكانوا يستأجرون منهم حرسا وأدلاء ويشترون منهم أغناما ودهنا ونحوهما · وفوق كل هذه الامور فقد كانت تلك القوافل في بعض الأوقات هدفا لغارات البدو ونهبهم (٣٩) ·

وظروف الحياة الخاصة بالبدوي من حيث عدم الاستقرار في مكان دائم ومن حيث الصراع حول موارد المياه ومواطن الكلأ جعلته يحس بارتباطه القوي بقبيلته وولائه لها · وما دام فردا منها من حيث النسب فانه كان لا يرى فرقا بينه وبين الأفراد الآخرين منها في مجال النظرة الاجتماعية · وبقي التفاوت في المكانة مبنيا على صفات شخصية معينة كالبطولة والكرم · وما من شك أن الشخصيات التي كانت قادرة على تحقيق قدر أكبر من تلك الصفات والتحلي بها كانت لها مراكز الصدارة من الناحية العملية ومن حيث نظرة المجتمع البدوي اليها · وليس غريبا ان كانت البطولة والكرم على رأس السجايا الممهدة للقيادة لان حياة البدو كانت مملوءة بمفاجآت الغزو والضيافة · والذي كان قادرا على القيام بأداء واجبات تلك الظروف كان مؤهلا لاحتلال المركز القيادي · ومن الشخصيات التي كانت مرموقة في المجتمع الى جانب رؤساء القبائل والبطون العقداء ورجال العرف وشعراء القبيلة ·

وفي نهاية الكلام عن الناحية الاجتماعية لدى بادية نجد آنذاك لا بد من الاشارة الى أن المرأة البدوية كانت لا تقل عن شقيقتها الحضرية مساهمة في العمل وبروزا في المجتمع ان لم تكن قد زادت عليها ·

يتبع · عبدالله الصالح العثيمين

الهوامش والمصادر

١ ـ عثمان بن بشر « عنوان المجد في تاريخ نجد » طبعة وزارة المعارف السعودية ، ١٣٩١ هـ ج ٢ ص ١٨٩ .

٢ ـ ابراهيم بن عيسى « تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ... » دار اليمامة ١٣٨٦ هـ ص ٣٢ و ٣٦ .

٣ ـ المصدر السابق ص ٥٠ .

٤ ـ المصدر السابق ص ٣٠ ـ ٣١ .

٥ ـ المصدر السابق ص ٣٢ .

٦ ـ المصدر السابق ص ٣٢ .

٧ ـ فهد المبارك « من شيم العرب » بيروت ١٣٨٣ هـ ج ٣ ص ٩٩ .

٨ ـ المصدر السابق ، نفس الصفحة .

٩ ـ خالد الفرج « ديوان النبط » القاهرة ج ١ ص ٤٣ .

١٠ ـ أحمد المنقور «الفواكه العديدة في المسائل المفيدة» دمشق ١٣٨٣ هـ، مقدمة الجزء الاول ص.و.

١١ ـ المصدر السابق ج ١ ص ١٥٦ .

١٢ ـ خالد الفرج ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٦ و ٤٤ .

١٣ ـ ابن بشر ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٥ .

١٤ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٠ . ابن عيسى ، المصدر السابق ص ٨٩ .

١٦ ـ المصدر السابق ص ٦٦ .

١٧ ـ ابن بشر ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٨ .

١٨ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٢١٦ و ٢١٩ .

١٩ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣١ .

٢٠ ـ احمد المنقور « الفواكه العديدة ... » ج ١ ص ٢٢٥ .

٢١ ـ ابن بشر ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢١٩ .

٢٢ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٢ ، ٢١٦ و ٢١٩ . أحمد المنقور « الفواكه العديدة ... » ج ١ ص ١٥٨ .

٢٣ ـ Burkhardt. J. L. " Notes on the Bedouins and Wahabys. " London, 1831. Vol. 1. P. 69.

٢٤ ـ Ibid.

٢٥ ـ Abû - Hûkima, A. " History of Eastern Arabia " (1750 - 1800). Beirut, 1963. P. 4.

٢٦ ـ أحمد المنقور « الفواكه العديدة ... » ج ١ ص ١٩٧ .

٢٧ ـ Burchardt, J. L., O.P. cit, Vol. 11. P. 29.

٢٨ ـ ابن بشر ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٩ .

٢٩ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٨ و ٢٣٢ .

٣٠ ـ خالد الفرج ، المصدر السابق ج ١ ص ٥١ .

٣١ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٤١ .

٣٢ ـ أحمد المنقور « الفواكه العديدة ... » ج ١ ص ٤٤٠ .

٣٣ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٤١٠ ـ ٤١٣ .

٣٤ ـ خالد الفرج ، المصدر السابق ج ١ ص ٦١ .

٣٥ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٣١ .

٣٦ ـ ابن بشر ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٧ .

٣٧ ـ حسين بن غنام « روضة الافكار والأفهام ... » القاهرة ، ١٣٦٨ هـ ج ١ ص ٢٦ .

٣٨ ـ عبدالله العاتم « خيار ما يلتقط من الشعر النبط » دمشق ١٣٨٧ هـ ج ٢ ص ٢٥٦ .

٣٩ ـ احمد المنقور « تاريخ الشيخ أحمد المنقور » ص ٦٧ و ٧٥ ، ابن بشر ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٠ و ٢٣٩ ـ ٢٤٠ .